طب نفسى

الهدف: خدمة الجماهير

د. محمد شعلان

وصفنا الخدمة الطبية الامتدادية بأنها تلك الخدمة التى يقدمها الطبيب وسط صفوف الجماهير، دون أن ينتظر حتى يستفحل المرض بالمريض، فيضطر اضطراراً للحضور إليه متكبدا الجهد والمال. إن هذه بمثابة خطوة تقدمية تنتقل بالطب من حصاره الذاتى وراء أسوار العيادات الخاصة. المستشفيات فى شبه عزلة أو تعال عن الجماهير، يكاد يأخذ صورة الاستقلال، إلى تلاحم مع هذه الجماهير، يعرفها بحقيقة مشاكلها الطبية، وكل ما يرتبط بها ويؤدى إليها.

ثم وصفنا الإضافة التى ساهمت بها مجموعة من شباب الأزهر وغيرهم وهى أن يكون الجانب الأكبر لهذه الخدمة الطبية هو الجانب التربوى الذى يهدف الى الارتفاع بمستوى وعى الجماهير، ليجعلهم مشاركين فى التعرف على مشاكلهم ومشاركين بالتالى فى حلها. وهو على المستوى الصحى أن يتعرفوا على أنماط السلوك التى تنمى انتشار الأمراض، وعلى غيرها من أسباب الأمراض، ويبادروا بالعمل من أجل تغييرها بدلاً من انتظار الإنقاذ من الخارج.

وأشرنا إلى أن هناك أبعادا سياسية لمثل هذا المنهج. فهو على المستوى الداخل يقول إن هدف خدمة الجماهير يمكن أن تلتف حوله مختلف التجمعات من جماعات إسلامية ومسلمى غير الجماعات الإسلامية، وغير المسلمين، وأعضاء الجماعات العلمية، وأصحاب الاتجاهات اليسارية واليمينية وغيرهم – كل هؤلاء يمكنهم أن يتفقوا – مادامت القيادة رشيدة، حول هدف واحد، هو هدف خدمة الجماهير.

ومادام هذا هو هدفهم فلا يمكن أن ترفض الدولة معاونتهم، ولا ترفض أجهزة الأمن حمايتهم. كما لايمكن لأحزاب المعارضة أن ترفضهم. فهم يخدمون الجماهير، متجاوزين رفع الشعارات المؤكدة لذلك، ومنشغلين بالعمل المباشر فى البيئة وخدمة الجماهير. ولايمكن لأجهزة المعونة الأمريكية أن ترفضهم، لأنهم يحققون ماتسعى إليه المعونة الأمريكية بعد خطئها الأخير فى إيران. وذلك بأن تتأكد أن معونتها تذهب فعلا إلى الجماهير، لا إلى جيوب السماسرة.

إذن فالهدف هو خدمة الجماهير، والحكم فى النهاية هم الجماهير. ولايوجد فى الأمر صاحب فضل. فالفضل يعم على الجميع، حتى الذين يقومون بالخدمة متطوعين يكتسبون مكانة أدبية بين جماهيرهم بأنهم المخلصون فى خدمتهم، على مكانة فى دولتهم بأنهم يقومون متطوعين بما لاتستطيع أن تقوم هى به أمرة، ولكن مؤيدة أو داعية: الأطراف جميعا أصحاب فضل وأصحاب مصلحة ولايوجد بطل فى المجموعة اللهم إن كان البطل المجهول فى الجمهور.

ومن المكاسب المعنوية التى نحصل عليها نحن القائمين بمثل هذه الأعمال أن الهدف النبيل يجب الخلافات، وأن الصراع قد يترى أطرافه مادام هناك إطار عام يبقى على الجماعة متماسكة، وقيادة رشيدة تمثل ذلك التماسك. الهدف هو الجمهور، وهو لابد أن يكون دائما على حق. نحن نستطيع أن نختلف حول ما إذا كان فى حاجة إلى علاج أولا أو توعية أولا أو اصلاحات هندسية بيئية أولا، ولكننا لن نختلف على أنه فى حاجة إليها جميعا وأكثر وأن كل ما يهدنا هو أن يعطى كل منا ما يجيد، فهذا يجيد إعطاء الحقن وإجراء العمليات وهذا يجيد بعث الحماسة فى الجماهير لتأخذ أمور حياتها بيدها وتبادر باتخاذ الاجراءات اللازمة للحفاظ على صحتها. كل يقدم مافى حوزته.

والحكم النهائى موجود وواضح، وليس بحاجة إلى سؤال. كل ما عليك أن تنظر إليه الآن أو بعد عام أو بعد عشرة أعوام: هل ارتفع مستوى صحتهم. وهل زادت سعادتهم؟

بناء على ذلك فقد كان اصرارنا منذ البداية أن تكون المشاركة من أطراف عديدة وغم أن المبادرة منا – فقد أشركنا الجامعات الأخرى والجمعيات بل الأفراد، بحيث لم يكن هناك تمييز على أساس الدين أو الجنس أو المذهب السياسى.

فقد علمنا الجمهور من خبرة سابقة أنه قد يفتن مؤقتا بالخطب البراقة – وخاصة حين تحتوى على وصف منع الجنة ومابها من حور عين – ولكنه فى النهاية يفضل الخدمة المباشرة التى تعود عليه بصحة أفضل بل ان الجماهير ذاتها تفضل أن يشترك معها فى تأدية الذكر أحد الأعضاء الأقباط، رغم اعتراض بعض أفراد الجماعات الإسلامية. الجماهير اذن هى الحكم النهائى وهى الدستور الذى يجب نرجع إليه لنصحح

■ ■

الدولة تهدف إلى خدمة الجمهور. وأفضل لها أن تخدم الجمهور بواسطة إشراكه معها سواء فى تشخيص الداء أو إعطاء العلاج، ولكن هناك حدودا لما يمكن أن يتم فيه الحوار بين نقيضين (فالدولة مهما كانت هى بالتعريف نقيض للجمهور).

وهنا تنشأ الحاجة إلى الكيانات الوسيطة بين الدولة والجمهور. لاهى رسمية بحتة بحيث لاتعدو أن تكون مجرد جهاز آخر من أجهزة الدولة، ولاهى شعبية بحتة بحيث تحرم من مزايا استخدام القنوات الشرعية المتاحة للدولة، أوتثير شكوك الدولة حول مصدر قوتها، فتتحول إلى نقيض آخر للدولة ينعدم بينهما الحوار.

كما أن هذه الأجهزة الوسيطة يجب أن تتميز بأنها ممثلة للشعب بأسره دون تمييز، على أساس دين أوجنس أو ولاء سياسى. مادام الهدف خدمة عامة ولايهدف إلى تولى الحكم فلا خوف ولاحظورة. كل ما يجب تأكيده أنه أبعد مايكون عن الحواء من المعنى السياسى.

معناها السياسى أن شعبا متماسك وشبابه يخدم شيوخه، ومتعلميه يخدمون فلاحيه وعماله، ويجتمعون حول هدف الخدمة بغض النظر عن عقائدهم الدينية أو السياسية. وأننا نقبل الاختلافات فى الدين والسياسة

وغيرهما من الاتهامات . ولكن هناك حدا أدنى من العمل يجمعنا . وأننا التزمنا بأن نتعاون مع قائد العمل فى إطار العمل الذى التزمنا به .

وختاما لاتفوت علينا هنا دعابة . حينما سألنى أحد المسئولين عن أجهزة الأمن عن هويتنا إذ حيره أمرنا بأن وجد جميع الملل والاتجاهات . فقلت له إن خدمة الجمهور فعلا تحقق الأمن . فيمكن أن تعتبرنا عملاء الأمن . كما أننا نحقق آمال الأمريكان فى أن المعونة فعلا تصل إلى الفلاح والفقير . ولاتتوقف عند السماسرة . كما حدث فى ايران . فيمكن أن تعتبرنا عملاء للأمريكان . وكذلك هى تحقق شعارات الشيوعيين فى أننا نتزل إلى القاعدة . فيمكن أن تعتبرنا عملاء للسوفيت . علاوة على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة . نجد فى العمل عبادة . وكل من عبد ربه بصدق فهو مسلم . وعليه فيمكن اعتبارنا من الجماعات الإسلامية . ولك الخيار أن تملأ تقريرك بما يعود عليك بالتقدير لمجهوداتك الفائقة فى اكتشاف شبكة جاسوسية !

ولكن اذا أردت الحقيقة وأنا أعلن أنها خيبة مهينة بالنسبة لك . فهى أننا لسنا شبكة ولسنا عملاء . ولكن مجموعة من الناس تحب الناس .

■ أبواب الحوار مغلقة على المستوى الرسمى حوار منقطع بين مصر وإسرائيل ويكاد يكون معدوما بين مصر والدول العربية . وعلى المستوى الشعبى حوار مستمر مع الدول العربية وفلسطين . وحوار يكاد يكون معدوما مع إسرائيل عن فيها من فلسطينيين . محتوى الحوار الرسمى : بحث عن حلول واقعية للمشكلة العامة . محتوى الحوار الشعبى : بحث عن حلول فردية للمشاكل الخاصة .

نحن نترك الحوار الجاد حول مصير القضية الفلسطينية فى الإطار الرسمى . وكأن القضية هى مجرد مشكلة دبلوماسية . ولكنى بأن نعلن عن عزوفنا عن الدخول فى أى حوار شعبى . مستمرين فى حالة مقاطعة ارتبطت بوجود حالة حرب سابقة . والنتيجة أن الشكوك تتزايد فى قيمة الاتفاقية . إذا لم يكن الشعب مشاركا فيها .

ولكن رسالة الصمت لها دوى . ويصل إلى إسرائيل أن عزوف الشعب المصرى عن الحوار منعه غضب من موقف حكومة يجين فى مفاوضات الحكم الذاتى . ويجب القلة المتنورة فى إسرائيل : ولكن نحن أيضا نعارض سياسة يجين لأسباب موضوعية . أهمها أن الشعب المصرى نفسه لن يرضى بسلام يعزله عن قومه العرب وإخوته الفلسطينيين . ولكن إخواننا لايصدقوننا بل يقولون متشككين : إن العرب عموما والمصريين يتعوزهم تدريجا . لايريدون السلام حقا . والرئيس السادات فقط هو الذى يؤمن بالسلام . أما الناس فبغريزتهم هذا يقولون إن كل مانأرادوه هو أرض سيناء ثم بعد ذلك خصام . لا أمل فى العرب .

ولابد أن نحمى أنفسنا بسواعدنا . فأقول لإخوانى هؤلاء : بل بقاؤنا ليس مرهونا بقوة سلاحنا . بل بقدرتنا على مد جذورنا التاريخية عما يعيدنا للسامية العربية . التى تربطنا بالعرب كلهم . فيقبلوننا بينهم مثلما يقبلون الأقباط والدروز والماردون . انهم لايصدقوننى أن العرب عامة والمصريين خاصة يحبون السلام . ويتعايشون مع اقباطهم فى وئام (حتى جئنا نحن وغيرنا الإيقاع) وهم جادون فى السعى اليه . فاقول لكم يا أصدقائى العرب . لابد أن تحضروا لنا شعبا لنقولوا ذلك لقومنا . فيحضر مثقفوكم وفلاحوكم وعمالكم . وكذلك لايصدقون مدى غضبكم من تسيا فى عزلكم عن إخوتكم العرب والفلسطينيين . فيجب أن تقولوا لهم ذلك أيضا . صدقنى إن الحوار الرسمى والإعلام قليل الفعول بالمقارنة مع المشاهدة واللقاء المباشر . إننا ندعوكم لمصلحتنا ولمصلحتكم .

والآن من الطبيب ؟ ومن المريض ؟ ومن الذى سوف يستمر فى الاختباء وراء حوائط العيادات والمستشفيات ؟ ومن الذى سوف يبادر بالامتداد والذهاب إلى المرض والمريض فى موقعه ؟

لقد حضر الكثير من مثقفى وعلماء إسرائيل إلى مصر . ولكن العكس لم يتم . وبينما حوارنا مع الدول العربية يتم على المستوى الشعبى . ولكن فى حدود « أجرتك كام . مشكور يا فندم » . الحوار الشامل مطلوب . سواء سعينا مع إسرائيل لابراز نقط الالتقاء والاختلاف وكيفية حلها . وربما مع الدول العربية لتوفير المناخ الكريم لمواطنينا الذين يساهمون هناك فى بناء الحضارة العربية .

هذا هو الصراع الحضارى الذى نواجهه مع إسرائيل . ونخشى الدخول فيه . وهو صراع — إن كان أقل حدة وأقل ضررا من الصراع العسكرى — فانه يتطلب صفات شجاعة على مستوى معنوى وثقة بالنفس . ونخاسك داخل . يسمح بالحوار الحر والنقد المتبادل . ومن واجبنا أن نواجه إسرائيل شعبا بأخطائها . فليس العيب فى يجين وحده أو حكومته . كما هو من واجبنا أن نجابه الأخطاء التى قد نواجه بها بالتالى وبدون هذا التلاحم والتفاهم الشعبى المتبادل لن تكون لأية اتفاقيات قيمة . فاذا كنا نريد الحرب فلنستعد لها . وإذا كنا نريد السلام الذى أعطاه فلنعمل من أجله . أما الرقص على السلم فضرره مزدوج .

- رأيت الله — مصطفى محمود
- فى رحاب على — خالد محمد خالد
- وجاء أبو بكر — خالد محمد خالد
- بين يدى عمر — خالد محمد خالد
- وداعا.. عثمان ! — خالد محمد خالد
- الفرزدق — د. ممدوح حقى
- عبد الرحمن الكواكبى — د. سامى الدهان
- رحلة من الشك إلى الايمان — مصطفى محمود
- شموس العرفان بلغة القرآن — عباس أبو السعود
- الزمن ونسيج النغم — ثروت عكاشة